أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا

قال تعالى : { وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون } (البقرة :170)

تكررت آيات شبيهة المعنى، وكلها تستنكر التصاق الأبناء بإرث الآباء المعاكس للحق. إرث باطل يجب تصحيحه أينما وكيفما ظهر، وإلا فمحاربته أولى. يأتي النبي يدعو قومه إلى خير الدنيا والآخرة، ونبذ الشرك وعبادة غير الله، فيأتي الأبناء بدافع العصبية والعناد في الوقت ذاته، يمجّدون إرث أسلافهم، وأنهم على دربهم سائرون ! هكذا كانت حالة غالبية القدماء.

المسألة لم تكن كامنة في العقول والألباب، بل في القلوب التي في الصدور. عناد ليس غيره. فإن أي عقل بشري سوي حين يرى الحق والباطل واضحاً أمامه، فإن فطرته تدفعه نحو الحق دفعاً، إلا إذا اختار المكابرة والمعاندة. وهكذا كان الأولون مع أنبيائهم.

روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: "دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أي ما وجدنا عليه آباءنا. فهم كانوا خيراً وأعلم منا، فأنزل الله تعالى هذه الآية". وقيل: الآية نزلت في مشركي العرب وكفار قريش، الذين اقتفوا خطوات الشيطان، وقالوا على الله دون علم ولا برهان. فإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله من قرآن، أعرضوا عن ذلك، وقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والخضوع للرؤساء، كما جاء في التفسير الوسيط للطنطاوي.

إذن هو تقليد أعمى مذموم، فليس كل تقليد محمود. ذلك أن التقليد في أمور العقيدة والتوحيد، دون علم ودراية كافية بما كان عليه من يتم تقليدهم، أمر مذموم يودي بصاحبه إلى التهلكة. ولهذا رد الله على من قال ونادى باتباع الآباء من منطلق التقليد الأعمى غير السوي، محاط بعناد وكبر وجهل (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ).

القرآن في مواضع عدة يحذر من خطر التقليد الأعمى والقياس غير الصحيح (لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ). قال مشركو مكة للنبي الكريم هذا. لقد سمعنا بهذا يا محمد كما سمع به الآباء والأجداد من قبل ذلك.. "لقد وَعَدنا هذا من قبل محمد واعدون – كما في الطبري – وعدوا ذلك آباءنا، فلم نر لذلك حقيقة، ولم نتبين له صحة (إِنْ هذا إِلا أساطيرُ الأولين) وما هذا الوعد إلا ما سطَّر الأوّلون من الأكاذيب في كتبهم، فأثبتوه فيها وتحدّثوا به من غير أن يكون له صحة".

هذا القياس باطل. الأبناء حين رأوا – ورؤيتهم ضبابية ناقصة – أن الآباء رفضوا دعوات السابقين من الأنبياء، واعتبروا دعواتهم جملة من الأساطير والخرافات والوعود لا تتحقق، حذوا حذوهم، وأمسوا يسيرون على خطى الآباء والأجداد. فطالما هم رفضوا، فهم يرفضون أيضاً، دون كثير نقاش وكثير تحليل وعميق فهم. هكذا كان كثيرون، وبسبب ذلك المنطق الأعوج غير السليم، وذلك القياس الخاطئ الباطل. هلك كثير منهم.

كمثل الذي ينعق

التقليد الأعمى إذن كما أسلفنا، يودي بصاحبه إلى التهلكة، خاصة إن كان تقليد الآباء والأجداد في أمور العقيدة والتوحيد، وكان أولئك الآباء والأجداد أساساً، على ضلالة وكفر. ومن هنا، وصف الله تعالى أولئك المقلدين الذين ساروا في درب تعطيل العقول والألباب، بأنهم كالأغنام ينعقُ لها راعيها بالدعاء أن تأتي، أو بالنداء أن تذهب. أغنامٌ لا تفقه شيئاً مما تسمع من الأصوات.

مثلك يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله عز وجل، كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم – كما قال البغوي في تفسيره – وأن الكافر لا ينتفع بوعظك، إنما يسمع صوتك. إنها "صورة زرية – كما يقول صاحب ظلال القرآن – تليق بهذا التقليد وهذا الجمود. صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه ماذا تعني، بل هم أضل من هذه البهيمة، فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صمٌ بكمٌ عُمي، ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون ما داموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون، فكأنها لا تؤدي وظيفتها التي خُلقت لها، وكأنهم إذن، لم تُوهب لهم آذان وألسنة وعيون. وهذا منتهى الزراية بمن يعطل تفكيره، ويغلق منافذ المعرفة والهداية، ويتلقى في أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التي ينبغي أن يتلقى منها أمر العقيدة والشريعة".

ما فائدة الآذان التي لا تسمع الحق؟، وما فائدة العيون التي لا ترى البراهين الدالة عليه، وما فائدة الألسن التي لا تنطق به؟ وعذرهم في كل ذلك (بلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)، فليس غريباً إذن أن يشبههم الله بالأنعام – أعزكم الله – بل هم أضل.

خلاصة الحديث

نكرر في ختام هذا الحديث، ما قلناه من ذي قبل، ونعيد التذكير به كرّة أخرى ما خلاصته، أن الناس {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} يحاسبهم على أعمالهم وما كسبت أيديهم، حيث لا قبيلة ولا عشيرة ولا عائلة، ولا آباء ولا أجداد ولا أحد يستفيد من أحد، بل لا أحد يفيد غيره في (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ)، فكل منا سيكون مشغولاً بنفسه، ولن يسأل الله أحدنا: من أبوك ومن جدك، بل من أنت وما عملك؟ وعلى هذا الأساس سينال كل منا نصيبه وأجره، فإن (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ).

احذر من التقليد الأعمى للآباء والأجداد ومن سبقوهم، خصوصاً في العقائد، ما لم يكونوا على عقيدة سليمة لا غبار عليها، والأفضل أن يكونوا من عالم الأموات أو البرزخ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: ألَا لا يقلِّدنَّ أحدكم دينه رجلاً، إن آمن: آمن، وإن كفر: كفر؛ وإن كنتم لابدَّ مقتدين، فاقتدوا بالميت؛ فإنَّ الحيَّ لا يُؤمن عليه الفتنة.

لا تسلّم عقلك للآخرين للقيام بمهمة التفكير نيابة عنك، والتخطيط لحياتك، ومن ثم توجيهك وجهة هم يرضونها، وإن كانت على حساب حياتك ومستقبلك الدنيوي والأخروي.. فاللهم ألهمنا الصواب في القول والفعل، وارزقنا البصيرة في الدين، وحسن التأسّي بخير الأنبياء والمرسلين، ﷺ، وعلى من اتبع هداه إلى يوم الدين.